الوسطية عند الشيخ أحمد التجاني وأثرها في نشر الإسلام في إفريقيا

بقلم

د. ليلى سهل — ط/دكتوراه: أمينة تجاني

shelleilaaaa@yahoo.fr — aminatedj@yahoo.com

قسم اللغة العربية وآدابها ـ جامعة محمد خيضر ـ بسكرة

ملخص البحث

يهدف هذا البحث إلى تسليط الضّوء على الوسطيّة عند صوفيّة المغرب الإسلامي، باعتبارهم من علماء هذا القطر من جهة، ومن جهة أخرى لما عُرف عنهم من قيم الوسطيّة والاعتدال ونشر المحبّة والتّسامح والتّعاون وقبول الاختلاف ... ولدورهم الفعّال في نشر الإسلام بين النّاس في إفريقيا وأوروبا .

وبالتّحديد يركّز هذا البحث على الوسطيّة عند الشّيخ أحمد التجاني، وذلك لتجسيده الفعلي لها في حياته، ولقدرته الكبيرة على توجيه تلاميذه إلى تطبيقها في حياتهم من خلال منهجه الصّوفي المستمد من الشّريعة المحمّديّة السّمحاء . ولأثرها الواضح والجلي في نشر الإسلام في إفريقيا ؛ وما يؤكّد ذلك انتشار الطريقة التجانية الواسع فيها، حيث فاقت جميع الطرق الصّوفيّة انتشارا في هذا الجزء من العالم.

وكذلك لتناول الشّيخ الوسطيّة من منظور صوفي يجمع بين الشّريعة والحقيقة، ما يجعله مختلفا عن غيره من العلماء الذين اهتمّوا بجانب واحد فقط دون الآخر ؛ إذ ركّزوا على الشّريعة وأهملوا الحقيقة مع أنّ الدّين كلّ لا يتجزّأ ؛ إسلام وإيمان وإحسان كما ورد في حديث عمر – رضي الله عنه – . ولمعالجته للموضوع بشكل علمي ممنهج واضح ؛ إذ حدّد المنهج المناسب لبلوغ الوسطيّة وعرّفه، ثم بيّن أسسه ومبادئه وآليّاته وأهدافه، حتّى يكون واضح المعالم للجميع وينافي كل غلوّ أو تقصير .

لأجل ذلك يحاول هذا البحث الكشف عن هذا المنهج الوسطي، سعيا إلى معرفة السّبيل المؤدّي إلى تطبيقه في الواقع، من أجل تحقيق الوسطيّة للأمّة الإسلاميّة وحمايتها من التّشتّت والضّياع بين الدّروب الخاطئة، حتى تكمل مسيرتها في نشر الإسلام، وهداية الخلق إلى دين خير الأنام .

مقدمة

إنّ من نعم الله تعالى وآلائه على الأمّة الإسلاميّة أن جعلها أمّة وسطا، لقوله تعالى: ﴿ وكذلك جعلناكم أمّة وسطا ﴾[1] وانطلاقا من هذه الوسطيّة نالت الخيريّة فكانت خير أمّة أخرجت للنّاس لقوله تعالى: ﴿ كنتم خير

[1] سورة البقرة، الآية 143 .

أمة أخرجت للنّاس ﴾[2] . فهذه هي صفة أمّة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكنّها لم تحافظ على هذه النّعمة الإلهيّة ؛ إذ عرّجت عن طريقها إمّا يمينا أو شمالا، ما أدخلها متاهات الغلوّ ومزالق التّقصير، وخاصّة بعد ظهور الفرق المختلفة المشارب والمنطلقات والمتعدّدة الأهداف والغايات، والتي ابتعدت عن منهج الاعتدال والتّوسّط الذي رسمه القرآن الكريم ومارسه سيّد المرسلين في الحياة، والتي لا تزال انحرافاتها العقديّة والسّلوكيّة إلى اليوم تنخر في عضد الأمّة.

وفي خضمّ هذا الاضطراب والواقع المؤلم للأمّة الإسلاميّة، أصبحنا في أمسّ الحاجة إلى توجيه الأمّة إلى الصّراط المستقيم والمنهج الوسط القويم، لإنقاذها من تشتّتها وحمايتها من انحراف أبنائها، وإعادتها إلى وسطيّتها الحقيقيّة حتى تتبوّأ مكانتها الأولى بين الأمم .

من هذا المنطلق كان اهتمامي بالوسطيّة، وبالتّحديد البحث عن السّبيل الموصل إلى تجسيدها حقيقة في الواقع كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم، فوجدت أنّ الشيخ أحمد التجاني قد حقّقها فعلا في حياته، وفصّل في الحديث عنها في منهجه الصّوفي، ودرّب تلاميذه على تطبيقها سلوكيا في الحياة الدّنيا . وبذلك بدا الفرق واضحا بين تدريس الوسطيّة نظريّا وبين تطبيقها عمليّا في الواقع الوجودي.

واقتناعا منّا بأهميّة هذا الموضوع ومسيس الحاجة إليه، رأينا أن نقدّم بحثا ونعدّه خصّيصا لهذا الملتقى – الوسطيّة في الغرب الإسلامي وأثرها في نشر الإسلام في إفريقيا وأوربا – يتعلق بالوسطيّة من خلال البحث في منهج الشيخ أحمد التجاني ومدرسته ودورهما في نشر الإسلام، فجاء معنونا بـ "الوسطيّة عند الشيخ أحمد التجاني وأثرها في نشر الإسلام في إفريقيا " .

وتكمن أهمّيّة هذا الموضوع في عدّة نقاط أهمّها :

– أنّ الشيخ أحمد التجاني صاحب حال لا صاحب مقال ؛ إذ استطاع تجسيد الوسطيّة في حياته وفق منهجه الصّوفي الوسطي، ما يؤهّله إلى توجيه الأمّة الإسلاميّة إلى المنهج الوسطي القويم القادر على إعادتها إلى وسطيّتها.

– الأثر الواضح للمدرسة التجانية ومنهجها الوسطي في نشر الإسلام في إفريقيا وخاصّة غربها .

– السلوك الاجتماعي السّوي الذي يتحلى به تلاميذ الشيخ أحمد التجاني إلى اليوم، وابتعادهم عن الإجرام والإرهاب والانحراف السّلوكي بكل أنواعه.

ولمعاجة موضوع الوسطيّة نطرح جملة من التّساؤلات أهمها :

– إذا كان الشيخ أحمد التجاني قد حقق الوسطيّة في حياته ودرّب تلاميذه على تجسيدها في حياتهم أيضا، فما هي حقيقة الوسطيّة عنده ؟ وأين تتجلّى مظاهرها ؟ وكيف السّبيل إلى تطبيقها؟ وما هو أثرها على الفرد والمجتمع؟

– هل يمكن للمنهج الصوفي التجاني بما عُرف عنه من قيم الوسطية والاعتدال ونشر المحبة والتسامح

[2] سورة آل عمران، الآية 110 .

وقبول الاختلاف، أن يشكّل اليوم مدخلا لبناء مجتمع أخلاقي وكيان حضاري متجدّد ومنتج لقيم النّهوض والمواطنة، يحافظ على ثوابت الأمّة الدينية والتاريخية، وفي الآن ذاته يساير العصر في المتغيرات ؟

وللإجابة عن هذه الإشكاليات ولجنا باب البحث العلمي، وتطفّلنا على موائد أهل العلم، إلا أنّنا لا ندّعي السّبق في هذا المجال، فقد كتب حول هذا الموضوع العديد من العلماء، من بينهم: فريد عبد القادر في كتابه (الوسطية في الإسلام)، ناصر العمر في كتابه (الوسطية في ضوء القرآن)، علي محمد الصلابي في كتابه (الوسطية في القرآن الكريم) وغيرهم كثير . إلا أنّهم جميعا اقتصروا على الوسطيّة من جانب الشّريعة فقط، أمّا هذا البحث فهو يسلّط الضّوء على الحقيقة إلى جانب الشّريعة، أي أنّه يتناول الوسطيّة من منظور صوفي ؛ يجمع بين الشّريعة والحقيقة.

ولضمان خروج البحث في أبهى حلّة قسّمناه إلى ثلاث أجزاء :

– الأوّل معنون ب "الوسطيّة" ويضم معنى الوسطيّة اللغوي في المعاجم العربيّة وفي القرآن الكريم، إلى جانب معناها الاصطلاحي .

– الثاني موسوم بـ "الوسطيّة عند الشيخ أحمد التجاني" ويشمل التعريف بالشيخ باعتباره أحد علماء المغرب الإسلامي ومؤسّس المدرسة الصوفيّة التجانية، إضافة إلى ذلك يتناول حقيقة الوسطيّة عنده من خلال عرض منهجه الصّوفي وتوضيح أسسه ومبادئه وآليّاته .

– الثّالث تحت عنوان "أثر الوسطية عند الشيخ أحمد التجاني في نشر الإسلام في إفريقيا" ويتحدّث عن أثر وسطيّة الشيخ على تلاميذه، ثم دور تلاميذه في نشر الإسلام من خلال تقديم أبرز تلميذ كان له الدّور الفعّال في نشر الإسلام في غرب إفريقيا حتى لقّب بسلطان الدّولة الإسلاميّة ؛ الشيخ الحاج عمر الفوتي .

أولا: مفهوم الوسطيّة

1– لغة :

أ– في المعاجم العربيّة : ورد في مقاييس اللغة "الواو السّين والطّاء بناء صحيح يدل على : العدل والنّصف، وأعدل الشّيء أوْسَطُه ووَسَطُه..."[3] .

وفي لسان العرب يذكر ابن منظور أنّ لفظة وسط قد تكون بتسكين السّين أو تحريكها، وتبعا لتغير شكل الحرف تتغيّر الكلمة بين الظرف والاسم والصّفة وتأخذ دلالات عدةّ ولكنّها متقاربة في المعنى، حيث يقول: "ويقال جلستُ وَسْطَ القومِ، بالتّسكين لأنّه ظرف، وجلستُ وَسَطَ الدّار بالتّحريك لأنّه اسم ... واعلم أنّ الوَسَطَ بالتّحريك، اسم لما بين طرفي الشّيء هو منه كقولك قبضْتُ وَسَطَ الحبلِ وكسرتُ وَسَطَ الرّمحِ وجلستُ وَسَطَ الدّار ... واعلم أنّ الوَسَطَ قد يأتي صفة، وإن كان أصله أن يكون اسما من جهة أنّ أَوْسَط الشّيء أفضله وخياره كوَسَط المرعى خير من طرفيه ومرعى وسط أي خيار منه"[4] .

[3] ابن فارس، مقاييس اللغة، دار الفكر، بيروت، د ط، 1979 ، ج 6، ص 108 (باب الواو والسّين) .

[4] ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، د ط، د ت،ج 7، ص 427 (مادة وسط) .

ويقول أيضا: "ووَسَطُ الشّيء وأَوْسَطُه : أعدله، ورجل وَسَطٌ ووَسيطٌ : حسنٌ ... وشيء وَسَطٌ أي بين الجيّد والرّديء "[5].

والملاحظ أنّ هذه المعاني في مجملها تتقارب مهما اختلف تصريف اللفظة ؛ إذ لا تخرج في معناها عن معنى العدل والخيريّة والأفضليّة والنّصف والبينيّة ... وكأنّ المعنى اللغوي للفظة وسط حسب المعاجم يقترب من التّصوّر الهندسي لنقطة تتوسّط قطعة مستقيمة بحيث يتساوى طرفاها .

ولكن في المقابل نجد أنّ نفس اللفظة – وسط- تمثّل مركز دائرة بالمنظور الصّوفي، بحيث تتمركز النّقطة في الوسط وتتساوى الأطراف أينما كانت النّقطة من محيط الدّائرة .

ب- في القرآن الكريم : إنّ هذه المعاني اللغويّة توافق معاني ورودها في القرآن الكريم ؛ إذ وردت بألفاظ مختلفة في أربع مواضع:

- أوّلها : قوله تعالى : ﴿وكذلك جعلناكم أمّة وسطا﴾[6] . وقد فسّرها الطّبري بإسناده عن النّبي صلى الله عليه وسلم بأنّها تعني عدولا . أي أنّ أمّة رسول الله صلى الله عليه وسلم معتدلين لتوسّطهم في الدّين، فلا هم أهل غلوّ فيه كغلوّ النّصارى الذين غلوا بالتّرهّب، وقولهم في عيسى ما قالوا فيه . ولا هم أهل تقصير فيه كتقصير اليهود الذين بدّلوا كتاب الله، وقتلوا أنبياءهم، وكذبوا على ربّهم وكفروا به . ولكنّهم أهل توسّط واعتدال فيه، فوصفهم الله بذلك إذ كان أحبّ الأمور إلى الله أوسطها[7] .

ومعنى هذه الآية يقترب من الوسطيّة المركزيّة الموجودة في قلب الدّائرة التي ذكرناها سابقا، لأنّ أمّة محمد صلى الله عليه وسلم أمّة وسطا ؛ وهذا يعني أنّهم مركز دائرة الشّعوب والأمم والأقوام منذ خلق آدم عليه السّلام إلى النّفخ في الصّور، وهذه الوسطيّة المركزيّة تمنحهم نظرة شموليّة عامّة تمكّنهم من الشّهادة على النّاس، كما هو حال مركز الدائرة الهندسيّة الذي يشمل كل الزّوايا بعكس النّقاط الموجودة على المحيط التي تكون لها زاوية نظر واحدة تجعلها قاصرة . ورسول الله صلى الله عليه وسلم هو مركز دائرة الأمّة الإسلاميّة، الشّاهد عليهم بنظرته الشّموليّة التي تعمّ الجميع بحكم مركزيّته .

هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإنّ كل النّقاط في الدّائرة الهندسيّة تنطلق من المركز وتعود إليه، فهو يمثل نقطة إشعاع، وكذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمّته يمثّلون مركز إشعاع وكوكبا مشعّا يسطع بنوره على كل العالمين، وذلك بتبليغه دين الله تعالى لأمّته، وهم بدورهم يبلغونه لكل الخلائق، وفي ذلك يقول تعالى: ﴿الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدي الله

[5] المرجع نفسه، ص 430 .
[6] سورة البقرة، الآية 143 .
[7] الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، دار الفكر، بيروت، د ط، 1405 هـ ، ج 2، ص 06، 07 .

لنوره من يشاء﴾[8] .

ويتحقّق إشعاع أمّة محمد صلى الله عليه وسلم ومركزيّتهم الوسطيّة التي تخوّلهم الشّهادة باقترابهم من مركز دائرتهم، وذلك لا يكون إلا بإتّباع رسول الله صلى الله عليه وسلم في كل شيء ؛ فكرا واعتقادا، قولا وفعلا . فكلما اقترب المسلمون منه حقّقوا الوسطيّة المنشودة، وكلما ابتعدوا عنه تطرّفوا ؛ إما غلوّا وإما تقصيرا .

– ثانيها: قوله تعالى: ﴿حافظوا على الصّلوات والصّلاة الوسطى وقوموا لله قانتين﴾[9] . تعدّدت أقوال المفسّرين في هذه الآية بين من اعتبر الوسطى بمعنى التّوسّط بين الصّلوات، وبين من اعتبرها أفضل الصّلوات، وبين من جمع بين الرّأيين .

وقد ذكر الطّبري أقوال العلماء في ذلك، وإن كان قد رجّح أنّ الصّلاة الوسطى هي صلاة العصر، وذلك لتوسّطها الصّلوات المكتوبات الخمس، وذلك أنّ قبلها صلاتين وبعدها صلاتين، وهي بين ذلك وسطاهنّ . والوسطى: الفعلى من قول القائل: وسطت القوم أوسطهم (وسطة) ووسوطا، إذا دخلت وسطهم، ويقال للذّكر فيه: هو أوسطنا . وللأنثى: هي وسطانا[10] .

أما ابن الجوزي فقد جمع أقوال العلماء في هذه الآية وصنّفها إلى ثلاث أقوال ؛ الأوّل : أنّها أوسط الصّلوات محلا. والثاني : أوسطها مقدارا . والثالث : أفضلها [11].

– ثالثها : قوله تعالى: ﴿فكفّارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم﴾[12] . وقوله أيضا: ﴿قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبّحون﴾[13] .

من الملاحظ أنّ اللفظة واحدة في الآيتين (أوسط) إلا أنّ العلماء اختلفوا في تفسيرها بين من جعل المعنى واحدا، وبين من فرّق بين المعنيين حسب موضع الآية . فأمّا معنى (أوسط) في سورة المائدة فقد فسّره الطّبري على أنّه أعدله، حيث قال: "وأولى الأقوال عندنا قول من قال: من أوسط ما تطعمون أهليكم في القلة والكثرة"[14]. وأما ابن الجوزي فذكر في معناها قولين؛ الأول: من أوسطه في القدر، قاله عمر وعلي. والثاني : من أوسط أجناس الطّعام، قاله ابن عمر وعبيدة والحسن وابن سيرين .

وأما القرطبي فقال: "تقدّم في سورة البقرة أنّ الوسط بمعنى الأعلى والخيار، وهو هنا بمنزلة بين المنزلتين ونصفا بين طرفين "[15] . وكذلك السيّد قطب قال: "وأوسط تحتمل من أحسن، أو من متوسّط، فكلاهما من

[8] سورة النور، الآية 35 .
[9] سورة البقرة، الآية 238 .
[10] الطبري، جامع البيان ، ج 2، ص 567 .
[11] ابن الجوزي، زاد المسير في علوم التفسير، المكتب الإسلامي، د ط، د ت، ج 1، ص 283 .
[12] سورة المائدة، الآية 89 .
[13] سورة القلم، الآية 28 .
[14] ينظر تفصيل ذلك : الطبري، جامع البيان، ج 7، ص 16، 22 .
[15] القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ، دار الكتاب العربي، القاهرة، ط 3، 1987، ج 6، ص 276 .

معاني اللفظ، وكان الجمع بينهما لا يخرج عن القصد، لأنّ المتوسّط هو الأحسن، فالوسط هو الأحسن في ميزان الإسلام"[16].

أما الآية الثانية في سورة القلم، قال الطبري: "وقوله: ﴿قال أوسطهم﴾ يعني أعدلهم وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التّأويل . قال ابن عباس: أوسطهم: أعدلهم، وبمثل ذلك قال مجاهد وسعيد بن المسيّب"[17] . وقال القرطبي: "﴿قال أوسطهم﴾ أي أمثلهم وأعدلهم وأعقلهم"[18] . وقال ابن الجوزي: "﴿قال أوسطهم﴾ أي أعدلهم وأفضلهم "[19] .

– رابعها: قوله تعالى: ﴿فوسطن به جمعا﴾[20] . وقد فسّر الطّبري الآية بقوله: "فوسطن بركبانهنّ جمع القوم. يقال: وَسَطْتُ القوم بالتّخفيف، ووَسَّطْتُ بالتّشديد وتوسّطته بمعنى واحد "[21] . وقال السيد قطب: "وهي تتوسّط الأعداء على غرّة، فتوقع بينهم الفوضى والاضطراب"[22] .

وخلاصة القول إنّ لفظة (وسط) تأخذ معاني عدّة ولكنّها متقاربة، ومن هذه المعاني الخيار والأفضل والعدل، كما قد ترد لما بين شيئين معنويّين كالخير والشّر، أو بين شيئين حسّيّين كوسط الطريق ووسط العصا وما إلى ذلك . وكل هذه المعاني تتجمّع في دائرة الإسلام التي تشمل كل العبادات والمعاملات والأحكام والتّشريعات وعلى المسلم أن يحتل مركزها حتى يحقّق الوسطيّة في كل ما يتعلق بقضايا الدّين .

2– اصطلاحا : ليس بعيدا عن المعنى اللغوي نجد أنّ الوسطيّة تعني التّوسّط في كل شيء، وتحقيق ذلك في الحياة الدّنيا لقوله تعالى: ﴿وكذلك جعلناكم أمّة وسطا﴾[23] فهذه الآية تبيّن "عدالة أمّة محمد صلى الله عليه وسلم في شهادتها على النّاس بتبليغ دين الله لهم ؛ إذ الأمّة الإسلاميّة أمّة مكلّفة تبليغَ دين الله للنّاس، وهم عدول، فشهادتهم مقبولة على الأمم يوم القيامة بأنهم بلّغوا دين الله لهم إذا فعلوا ذلك وأدّوا ما أوجب الله عليهم من تبليغ"[24] .

فالوسطيّة هي "مؤهّل الأمّة الإسلاميّة من العدالة والخيريّة للقيام بالشّهادة على العالمين، وإقامة الحجّة عليهم "[25]. ولا تتحقق هذه الأهليّة إلا بالاستقامة على الصّراط المستقيم واتّباع المصطفى عليه الصّلاة والسّلام في كل حركة ونفس، أي في العقائد والعبادات والأخلاق والمعاملات ...

---

[16] سيد قطب، في ظلال القرآن، ج 2، ص 971 .
[17] الطبري، جامع البيان ، ج 29، ص 34 .
[18] القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج 18، ص 244 .
[19] ابن الجوزي، زاد المسير، ج 08، ص 338 .
[20] سورة العاديات، الآية 05 .
[21] الطبري، جامع البيان، ج 30، ص 286 .
[22] سيد قطب، في ظلال القرآن، ج 6، ص 3958 .
[23] سورة البقرة، الآية 143 .
[24] عبد الرحمن حسن حنبكة الميداني، الوسطية في الإسلام، مؤسسة الريان، بيروت، ط 1، 1996، ص 10 .
[25] فريد عبد القادر، الوسطية في الإسلام، ص 29 .

وعليه فإنّ الوسطيّة معنى يتّسع ليشمل كل الخصال المحمودة التي تتوزّع على كامل دائرة الدّين، لأنّ كل "خصلة محمودة لها طرفان مذمومان، فإنّ السّخاء وسط بين البخل والتّبذير، والشّجاعة وسط بين الجبن والتّهوّر، والإنسان مأمور أن يتجنّب كل وصف مذموم وكلا الطّرفين هنا وصف مذموم، ويبقى الخير والفضل للوسط"[26]. كذلك فإنّ "الزّيادة على المطلوب في الأمر إفراط، والنّقص عنه تفريط وتقصير، فالخيار هو الوسط بين طرفي الأمر أي المتوسّط بينهما"[27].

ولكن الوسط لا يعني التّوسّط بين شيئين في كل الأحوال دون النّظر إلى الخيريّة التي دلّ عليها الشّرع، فقد "شاع عند كثير من النّاس استعمال هذا الاصطلاح الرّبّاني استعمالا فضفاضا يلبس أيّ وضع أو عرف أو مسلك أرادوه حتى أصبحت الوسطيّة في مفهومهم تعني التّساهل والتّنازل "[28] .

وبالرّجوع إلى ما ورد في القرآن الكريم والسّنّة المطهّرة، نجد أنّ الوسطيّة لا تتحقق بين شيئين فقط ولكن بين أشياء عديدة تأخذ تشكيلات متنوّعة تتوزّع عبر نشاط العبد كله ؛ عباداته ومعاملاته وأخلاقه... أو ما نصطلح عليه تسمية دائرة أعماله، وحتى تحقق الوسطيّة يشترط فيها وجود صفتان متلازمتان هما:

- الخيريّة : أو ما يدلّ عليها كالأفضل والأحسن والأعدل .

- البينيّة : أي بين شيئين سواء أكانت حسّا أم معنى .

ووجود أحد الوصفين دون الآخر لا يدخل بالضّرورة في مصطلح الوسطيّة، فلابدّ من الجمع بينهما – الخيريّة والبينيّة– لحصول الوسطيّة، وأما ما عدا ذلك فلا . وعليه فالوسطيّة تعني الخيريّة سواء أكانت خير الخيرين أو خيرا بين شرّيْن، أو خيرا بين أمرين متفاوتين .

ولا نحيد عن الصّواب إن قلنا إنّ الوسطيّة هي الصّراط المستقيم الذي دعانا الله عز وجل إلى اتّباعه في قوله: ﴿اهدنا الصّراط المستقيم﴾[29] . لأنّه صراط وسط عدل ينافي غلوّ النّصارى وإفراطهم من جهة، وتقصير اليهود وتفريطهم من جهة ثانية، لقوله تعالى: ﴿صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضّالين﴾[30] . فهو الصّراط الموصل إلى الغاية الحميدة والمسعدة لكل من سلكه في الدنيا والآخرة . فعن جابر بن عبد الله قال: كنّا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فخطّ خطّا، وخطّ خطّين عن يمينه، وخطّ خطّين عن يساره، ثم وضع يده على الخط الأوسط فقال: هذه سبيل الله . ثم تلا هذه الآية: ﴿وأنّ هذا صراطي مستقيما فاتّبعوه ولا تتّبعوا السّبل فتفرّق بكم عن سبيله﴾[31] .

وعن النّواس بن سمعان قال : "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ضرب الله مثلا صراطا مستقيما،

---

[26] زيد عبد الكريم الزيد، الوسطية في الإسلام، ص 18 .

[27] محمد رشيد رضا، تفسير المنار، دار المعرفة، بيروت، ط 2، د ت، ج 2، ص 04 .

[28] زيد عبد الكريم الزيد، الوسطية في الإسلام، ص 33 .

[29] سورة الفاتحة، الآية 06 .

[30] سورة الفاتحة، الآية 07 .

[31] سورة الأنعام، الآية 153 .

وعلى كنفي الصّراط سوران فيهما أبواب مفتّحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعلى الصّراط داع يدعو يقول: يا أيها النّاس اسلكوا الصّراط جميعا، ولا تعرجوا . وداع يدعو على الصّراط، فإذا أراد أحدكم فتح شيء من تلك الأبواب قال: ويلك لا تفتحه فإنّك إن تفتحه تلجه . فالصّراط الإسلام والسّتور حدود الله، والأبواب المفتّحة محارم الله، والدّاعي الذي على رأس الصّراط كتاب الله، والدّاعي من فوقه واعظ الله يذكر في قلب كل مسلم"[32] .

ويمكن القول إن الوسطيّة هي الصّراط المستقيم الذي يمثل الشّريعة السّمحاء بكل ما تشتمل عليه من تشريعات وأحكام وأخلاق وقضايا ووصايا، هي المنهج الرّبّاني الذي رسمه تعالى لعباده في كتابه العزيز، وترجمه رسوله صلى الله عليه وسلم حركة عمليّة وتفاعل اجتماعي وسلوك يومي، ترجمة فعليّة حقيقيّة تنبع عن فهم عميق للوسطية وقدرة كبيرة على تجسيدها في الحياة اليوميّة، فهو القدوة والأسوة الحسنة لكل المسلمين، ولهذا وجب اتّباعه في كل شيء لتحقيق الوسطيّة لقوله تعالى: ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا﴾[33] .

ثانيا : الوسطيّة عند الشيخ أحمد التجاني :

1- التعريف بالشيخ أحمد التجاني :

الشيخ أحمد التجاني هو" أبو العباس أحمد بن محمد (فتحا) بن المختار ابن أحمد بن محمد بن سالم، ولد سنة (1150 هـ ،1737 م) بقرية عين ماضي بالأغواط بالجزائر، ونشأ بها في عفاف وأمانة، وحفظ وصيانة، وتقى وديانة،كان كريم الأخلاق طيب النّفس والفعال، كثير الحياء والأدب، حسن السّمت، طويل الصّمت، كثير الوقار عالي الهمة "[34] .

كان أسلافه كلهم منتسبين لأهل العلم ومشهورين بالتّقى والصّلاح، ويصعد نسبه الأبوي إلى سيدنا الحسن ابن الإمام علي كرّم الله وجهه وحفيد النبي سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم من ابنته السيدة فاطمة الزهراء. أما أمّه فهي السّيدة عائشة بنت محمد السنوسي التجاني المضاوي، نسبة إلى قبيلة بنو توجين التي أعطت اسمها للشيخ الذي أصبح يعرف به (التجاني) "[35].

حفظ الشّيخ أحمد التجاني القرآن العظيم في السابعة من عمره، وما إن بلغ الخامسة عشر حتى أتمّ الدراسة بعين ماضي على يد الأستاذ مبروك بن بوعافية، فقرأ عليه مختصر خليل والرسالة لابن أبي زيد القيرواني ومقدمة ابن رشد وكذلك تحصّل على كل ما يلزمه من علم النحو واللغة وصار جديرا بالتدريس والفتوى

---

[32] الحاكم، المستدرك، مكتب المطبوعات الإسلامية، د ط، د ت، ج 1، ص 145، كتاب الإيمان (رقم الحديث 245) .

[33] سورة الأحزاب، الآية 21 .

[34] علي حرازم بن العربي براده المغربي، جواهر المعاني وبلوغ الأماني في فيض سيدي أبي العباس التجاني، تح: محمد الراضي كنون، دار الرشاد، الدار البيضاء، المغرب، ط 1، 2011، ج1، ص 96،

[35] المرجع نفسه، ص 96 .

فكان يدرّس ويفتي[36].

ثم مال الشيخ إلى طريق الصوفية والبحث عن الأسرار الإلهية حتى تبحر في فهم علومها والأحوال والمقامات والعلل والوقت، فبعد مُضي ثلاث سنوات قضاها بالتعليم في عين ماضي قام بجولة طويلة (بين 1758 م و1763م) قطع فيها ربوع الصحراء وبلاد المغرب الأقصى قاصدا مراكز العلم وملتمسا للمعرفة والحكمة من أربابها وخلال هذه الفترة أخذ الطريقة القادرية والصديقية بمدينة فاس، ثم رجع من المغرب واستقر بزاوية أولاد سيدي الشيخ بقرية الأبيض سيدي الشيخ مدة 5سنوات (1763، 1767م) ، ثم انتقل إلى مدينة العلم تلمسان التي مكث بها 5 سنوات (1768، 1772م) قضاها في التدريس .

وفي سنة 1773م عزم على أداء فريضة الحج فمر بجبل جرجرة بالقبائل الكبرى وأخذ الطريقة الخلوتية عن الولي الشهير محمد بن عبد الرحمن، ثم مر بتونس ومكث بها بضعة أشهر يدرّس بجامع الزيتونة فأفاد واستفاد من أهل العلم والصلاح ، ثم واصل سيره فمرّ بالقاهرة والتقى بالولي الشهير محمود الكردي (1715، 1780م) كما التقى بالولي أحمد بن عبد الله الهندي الذي منحه أسراره العلمية والمعرفية .

وفي يوم الاثنين التاسع من ذي الحجة (20 فيفري1774م) كان وقوفه بجبل عرفه، وبعد إتمام مناسك الحج المبرور شدّ الرحيل لزيارة النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة المنورة فالتقى فيها بالولي محمد بن عبد الكريم السمان (1718، 1776م) أحد مشايخ الطريقة القادرية الذي منحه ما شاء الله من علوم وأسرار وبشّره بعلو المقام[37].

رجع الشيخ أحمد التجاني إلى الجزائر في آخر 1774م ومكث بتلمسان (من 1775م إلى 1781م) حيث التقى بأول أصحابه ومريديه محمد بن المشري السائحي الطيباتي، وخلال هذه الفترة زار فاس سنة 1777م أين التقى بصاحبه الثاني العارف بالله الحاج علي حرازم مؤلف كتاب جواهر المعاني[38] .

وفي سنة 1781م رحل الشيخ أحمد التجاني إلى قصر أبي سمغون بولاية البيض في الجنوب الغربي الجزائري وفي هذا القصر ذات يوم من أواخر سنة (1196هـ،1781م) بلغ مراده وكان الفتح الأكبر [39].

بعد ذلك بدأ الشيخ أحمد التجاني في تلقين الخلق الطريقة التجانيّة، ثم عرفت هذه الأخيرة "انتشارا قويا في ظرف ستة سنوات وأثارت سرعة انتشارها مخاوف السلطات العثمانية ببايلك الجزائر ووهران . مما أدى بهم إلى إصدار تهديد شديد اللهجة لأهل قصر أبي سمغون لإخراج الشيخ أحمد التجاني من بين أظهرهم إذا أرادوا السّلامة من بطشهم ، فعند هذا التهديد فضّل الشّيخ الخروج من هذا القصر رغم احتجاج أهله الذين ناشدوه البقاء معهم ووعدوه بحمايته بأموالهم وأنفسهم، إلا أنّه فضّل لهم العافية شفقة بهم ، وخرج في 28 أوت

---

[36] المرجع نفسه ، ص 96، 97 .

[37] الحاج علي حرازم، جواهر المعاني وبلوغ الأماني، ج 1، ص 115، 122 .

[38] عبد الباقي مفتاح ، أضواء على الشيخ أحمد التجاني وأتباعه، الوليد للنشر، كوينين، الوادي، الجزائر، د ط، د ت ، ص 78 .

[39] الحاج علي حرازم ، جواهر المعاني ، ص 125 .

1798 م قاصدا مدينة فاس التي دخلها يوم 17 سبتمبر من نفس السنة ... وهكذا استقر الشيخ أحمد التجاني في مدينة فاس 17سنة (1798، 1815م) بعدما قضى 17سنة بأبي سمغون بالجنوب الجزائري (1781، 1798م)"[40].

لبّى الشيخ أحمد التجاني نداء ربّه صبيحة يوم الخميس 17 شوال 1230 هـ، 1815م، عن عمر يناهز 80 سنة، ودفن بزاويته بفاس . وواصلت الطريقة التجانية انتشارها من خلال خلفائه الذين حملوا اللواء وواصلوا المسيرة في كل أصقاع العالم[41].

إذن هو أحد علماء المغرب الإسلامي الذين ساهموا في نشر قيم الوسطيّة من خلال مدرسته التي أسّسها ؛ المدرسة الصّوفيّة التجانيّة التي اتّخذت من الوسطيّة كمنهج عملي سلوكي لها، حيث ربّى عليه تلاميذه وأتباعه، وذلك باتّباع الصّراط المستقيم، وتطبيق تعاليم ومبادئ الشّريعة الإسلاميّة في حياتهم اليوميّة، حتى يكونوا مؤهّلين لنشر الدّين والخير والعدل والمحبة والسّلام بين النّاس في الدّنيا، وأهلا للشّهادة على الأمم في الآخرة، فهو ممّن قال فيهم تعالى: ﴿وممّن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ﴾.[42]

وقد واصلت هذه المدرسة مسيرتها من خلال خلفائه الذين أكملوا ما بدأه باتّباع نهجه وطريقه الذي رسمه لنفسه ولغيره من المريدين . فامتدّ الزّمان واتّسع المكان وأخذت هذه المدرسة تتّسع وتنمو نموّا سريعا فانتشرت زواياها وتوزّعت فروعها في كل أنحاء العالم، ومع توسّعها وتفرّعها بقيت صامدة، وفيّة لمؤسّسها الأوّل الشيخ أحمد التجاني، تسير على نهجه بِخُطى ثابتة، لم تتبدّل ولم تتغيّر رغم التغيرات الزمانية والمكانية .

2- حقيقة الوسطيّة عند الشيخ أحمد التجاني :

يرى الشيخ أحمد التجاني أنّ الوسطيّة تجلّت حقيقة في شخص رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا سبيل إلى بلوغها في الحياة الدّنيا إلا بالاقتداء به صلى الله عليه وسلم واتّباعه . وهذا لا يكون إلا بالاستقامة على أحكام الشّريعة "وجمع الهمّة على الثّبات عليها من غير انحراف وبعيدا عن نزغات الشّيطان وخطرات النّفوس المريضة وهواجسها"[43] . لأنّ الاستقامة هي التي تجعل العبد قريبا من رسول الله صلى الله عليه وسلم، محقّقا الوسطيّة المركزيّة في أرقى مظاهرها بالمنظور الصّوفي .

ولأجل ذلك رسم الشيخ أحمد التجاني خطّ سيره لبلوغ هذه الوسطيّة، فكان التّصوّف مطيّته إلى ذلك باعتباره منهجا عمليّا قادرا على تحقيق ذلك من خلال مساريه الاثنين ؛ المسار روحي، والمسار العملي. لانّ التّصوّف يمثل المقام الثالث من مقامات الدّين، وهو أعلاها وأرقاها ؛ مقام الإحسان المعبّر عنه في حديث

[40] عبد الباقي مفتاح ، أضواء على الشيخ أحمد التجاني وأتباعه ، ص 83 .
[41] المرجع نفسه ، ص 95 .
[42] سورة الأعراف، الآية 181 .
[43] معتوق جمال، أوسرير محمد، الصحة الإيمانية والوقاية من السلوك الانحرافي (التربية الصوفية أنموذجا)، دفاتر مخبر المسألة التربوية في الجزائر في ظل التحديات الراهنة، الجزائر ، ص 138 .

عمر – رضي الله عنه – "أن تعبد الله كأنّك تراه وإن لم تكن تراه فهو يراك"[44] . والذي لا مطمع لأحد فيه إلا بعد إتمام مقام الإسلام عملا ومقام الإيمان اعتقادا .

إنّ الإحسان يؤدّي إلى تطبيق الأوامر المطلوبة شرعا، وتفادي المحظورات والمنهيّات والمحرّمات شرعا، وهذا هو مربط الفرس في التّصوّف ؛ تحقيق الاستقامة ومن ثمّة تجسيد قيم الوسطيّة . وهذا يعني أنّ التّصوّف منبعه الحقيقي الإسلام ؛ إذ يرتكز على أسس ومبادئ أساسها الشّرع الحنيف، ويعتمد على أصول وقواعد مضبوطة ومحدّدة للسّلوك مستنبطة من القرآن الكريم والسّنّة المطهّرة . وهو بذلك يرفض كل غلو أو تقصير ؛ لأنّ في الأول تجاوز لحدود الله وخروج عنها وتّوسّع في مساحة الدّين . وفي الثاني تقليص وتقليل لحدود الله ونقص من مساحة الدّين .

فإذا كان الأمر كذلك فما هي حقيقة التّصوّف عند الشيخ أحمد التجاني ؟

3- حقيقة التّصوّف:

عرّف الشّيخ أحمد التجاني التّصوّف بقوله: "هو امتثال الأمر واجتناب النّهي في الظّاهر والباطن من حيث يرضى لا من حيث ترضى "[45] . في هذا التّعريف حدّد الشيخ أسس المنهج الصّوفي التجاني الذي ينتهجه هو وكل من تبعه وسار على نهجه، والذي يتمثل في اتّباع الشّريعة في مقام الإسلام ومقام الإيمان ومقام الإحسان، لأنّ ترك أي مقام يؤدّي إلى التّقصير، والاهتمام بمقام دون آخر يؤدّي إلى الغلو، فلا يمكن التّجزئة لأنّ الدّين كلّ لا يتجزّأ . وفيما يلي توضيح لهذه الأسس .

أ- أسس المنهج الصّوفي التجاني :

أ-1- امتثال الأمر واجتناب النّهي : وهذا يعني العلم بالشّريعة واتّباع الصّراط المستقيم الذي يمثّل قمّة الوسطيّة وذروة سنامها وأعلى درجاتها، وفي آيتي الفاتحة دليل قاطع على ذلك . فهو "طريق العبوديّة، طريق الخوف والرضا والحب، وامتثال المأمور واجتناب المحظور، ومتابعة الكتاب والسّنّة والعمل بطاعة الله "[46] . فالأساس الأوّل يركّز على القيام بحقوق الدّين وواجباته، والالتزام بحدود الله والمحافظة عليها.

أ-2- في الظاهر والباطن : إنّ المقصود بالظاهر مقام الإسلام، وبالباطن مقام الإيمان، وهذا يعني العمل بالشّريعة في الظاهر أمام النّاس، وفي الباطن أمام الرّقيب – الله عز وجل- في كل قول وعمل، فتقيّد العبد داخليّا بضوابط ومعايير الشّرع يؤدّي حتما إلى ظهور السّلوك المتّزن الوسطي البعيد عن الانحراف والتّجاوز . فالسّلوك الصّوفي يُبنى على أساس اتّباع الحق الثّابت والانقياد بقانون الشّريعة داخليا وخارجيا.

أ-3- من حيث يرضى لا من حيث ترضى: والمقصود به مقام الإحسان، وهذا يعني عبادة الله تعالى

---

[44] الإمام محي الدين بن شرف النووي، شرح الأربعين نووية، اعتنى بها: محمود بن الجميل، دار الإمام مالك، الجزائر، ط 2، 2001، ص31.

[45] الحاج علي حرازم، جواهر المعاني، ج 2، ص 539، 540 .

[46] محمد جمال الدين القاسمي، تفسير القاسمي، راجعه محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت، ط 2، 1978، ج 1، ص 20 .

وإرضائه على الدّوام، فالمقياس الحقيقي لتحديد الوسطيّة والخيريّة هو "الشّرع وليس هوى النّاس أو ما تعارفوا عليه أو ألفوه لأنّ مفهوم الوسطيّة عند كثير من النّاس تعني التّساهل أو التّنازل، بل والمداهنة أحيانا حيث يختارون الأمر بين الخير والشّر وهو إلى الشّر أقرب في حقيقته ومآله "[47] لأنّه وجد هوى في أنفسهم .

وهذا لا يتناسب مع المنهج الصّوفي التجاني الذي يدعو إلى التزام الحق في كل شيء وتجنّب الباطل في كل شيء، وفي ذلك يقول الشيخ أحمد التجاني: "وَصُونُوا قُلُوبَكُمْ إِذَا رَأَيْتُمْ أَحَدًا فَعَلَ حَقّاً يُخَالِفُ هَوَاكُمْ ، أَوْ هَدَمَ بَاطِلاً يُخَالِفُ هَوَاكُمْ أَنْ تُبْغِضُوهُ أَوْ تُؤْذُوهُ فَإِنَّ ذَلِكَ مَعْدُود مِنَ الشِّرْكِ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى "[48]. فاتّباع الهوى قد يخرج المسلم عن جادّة الطّريق ويقذف به في سبل متفرّقة بعيدة كل البعد عن الصّراط السّوي والوسطيّة .

وممّا سبق ذكره نجد أنّ أسس المنهج الصّوفي الذي حدّده الشيخ أحمد التجاني لنفسه ولكل من انتهج نهجه هو الدّين بجميع مقاماته ؛ الإسلام والإيمان والإحسان ؛ إذ لابدّ من معرفة شرع الله عز وجل وحدوده ؛ حلاله وحرامه . ثم العمل به وتطبيقه ظاهرا وباطنا في الحياة اليوميّة . من أجل الوصول إلى مرضاة الله عز وجل، وفي ذلك يقول الشيخ : "وَلْيَكُنْ سَعْيُهُ فِي ذَلِكَ فِي مَرْضَاةِ اللهِ تَعَالَى ، لاَ لِحَظِّ زَائِدٍ عَلَى ذَلِكَ ... "[49]

وخلاصة القول إنّ هذه الأسس تربّي المريدين وتدرّبهم على الالتزام بالقيم الوسطيّة والمعايير الأخلاقيّة والحدود الشرعية المضبوطة، لأنّها تخلق فيهم وازعا دينيّا داخليّا ينتج لديهم شعورا وإحساسا دائما بالمراقبة الإلهيّة، وبذلك "تحوّل الفرد إلى ساع في الأرض ينشد السّلوك السّوي ويتوخّى الصّرامة في احترام القيم والمثل الدّينيّة التي يؤمن بها والتي تصنع ضميره وتحرّك أفعاله "[50] .

ب- مبادئ المنهج الصوفي التجاني:

حدّد الشيخ أحمد التجاني بعض المبادئ التي تؤطّر منهجه الصّوفي حتى لا يحيد عن وسطيّة الإسلام، وحتى لا يترك المجال مفتوحا أمام المريد الصّوفي، فيجنح إلى الغلو أو إلى التّقصير بسبب مبالغته في الاندفاع القوي دون بصيرة بغية السّبق للظّفر بأعلى الدّرجات في الدّين، أو بسبب سوء فهم حقيقة منهجه الصّوفي، أو بسبب اجتهادات المريد الشّخصيّة في أحكام الدّين وشرائعه بعيدا عن اجتهادات إمامه وشيخه . وذلك لأنّ الوسطيّة أمر يصعب تحديده في كل قضايا الدّين وخاصّة في الفكريّات والنّفسيّات والسّلوكيّات، وهذه المبادئ هي:

ب-1- المبدأ الأوّل: محبّة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم لأنّ المحبّة هي سبيل الطّاعة والاتّباع لقوله تعالى : ﴿قل إن كنتم تحبّون الله فاتّبعوني يحببكم الله ﴾[51] . وفي ذلك يقول الإمام الشّافعي :

تعصي الإله وأنت تظهر حبّه هذا محال في القياس بديع

---

[47] علي محمد محمد الصلابي، الوسطية في القرآن الكريم، مكتبة الصحابة، الإمارات، مكتبة التابعين، القاهرة، ط 1، 2001، ص 64 .

[48] الحاج علي حرازم، جواهر المعاني، ج 2، ص 759 .

[49] المرجع نفسه ، ج2 ، ص 756 .

[50] معتوق جمال، أوسرير محمد، الصحة الإيمانية، ص 143 .

[51] سورة آل عمران، الآية 31 .

لو كان حبّك صادقا لأطعته إنّ المحبّ لمن أحبّ مطيع
في كل يوم يبتديك بنعمة منه وأنت لشكر ذاك مضيع[52]

وقد شرح الشيخ أحمد التجاني هذه المحبّة – محبّة الخلق لله تعالى –، وصنّفها إلى أربع مراتب ؛ محبّة الذّات، ومحبّة الصّفات، ومحبّة الآلاء، ومحبّة الإيمان، وكل طائفة اتّبعت رسول الله صلى الله عليه وسلم في المحبّة على مقدارها . فأمّا الطائفة الأولى: هم الذين أحبّوه تعالى محبّة الذّات، فاتّبعوا رسوله واقتدوا به في الاتّصاف بالأحوال العليّة والأخلاق الإلهيّة . وأمّا الطائفة الثانية: هم الذين أحبّوه تعالى لأجل ما هو عليه من محامد الصّفات .

وأمّا الطّائفة الثالثة: هم الذين أحبّوه لآلائه ونعمائه، ومقتضى ذلك هو الشكر لله تعالى، فهؤلاء اقتدوا به صلى الله عليه وسلم في مقام الشكر، حيث قيل له في قيام الليل : أتفعل هذا وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فقال: أفلا أكون عبدا شكورا، وقد قال صلى الله عليه وسلم: أحبّوا الله لما يغدوكم به من نعمه، وأحبّوني لحبّ الله، وأحبّوا أهل بيتي لحبّي .

وأما الطائفة الرابعة: فقد أحبّوه تعالى محبّة الإيمان، وهم الذين اتّبعوا رسوله صلى الله عليه وسلم في مرتبة الإيمان، والمحافظة على بعض الفرائض، وإن وقعوا في بعض المخالفات فما خرجوا عن متابعته صلى الله عليه وسلم[53] .

وتدريج هذه المراتب على هذا النّحو لتحقيق الاتّباع بالتّدريج، فصاحب محبّة الإيمان إذا أدام التّوجّه بها إلى الله تعالى، ولازم قلبه ذلك انتقل منها إلى محبّة الآلاء والنّعماء لأنّها أعلى منها، وصاحب محبّة الآلاء والنّعماء إذا أدام التّعلّق بها، والتّوجّه إلى الله بالقلب على طريقها، انتهت به إلى محبّة الصّفات، فانتقل إليها حينئذ وهي أعلى منها، وصاحب محبّة الصّفات إذا أدام التّوجّه بها إلى الله تعالى واستقام سيره وسلوكه انتقل منها إلى محبّة الذّات، وهي أعلى وهي الغاية القصوى[54] .

فالمحبّة عند الشيخ أحمد التجاني منهجيّة متكاملة المفاهيم والوسائل التّربويّة تنطلق من التّعلّق بالذّات الإلهيّة وما يقتضيه من اتّباع لرسول الله صلى الله عليه وسلم ومعاداة للنّفس وشهواتها ليؤدّي في النّهاية إلى "تسامي الأنا في معراج تصاعدي يجعل الفرد يتخلّق عمليّا بأخلاق الألوهيّة "[55] . وإذا تخلّق المسلم بأخلاق الألوهيّة فإنّه سوف يحقق قيم الوسطيّة كلها في المجتمع من عدل وخير وتعاون وتسامح وإيثار..

ب-2- المبدأ الثاني: اتّخاذ الشّرع ميزانا لأقوال الشّيخ أحمد التجاني، حيث يقول: "إذا سمعتم عنّي شيئا فزنوه بميزان الشّرع، فإن وافق فاعملوا به وإن خالف فاتركوه"[56] . وهذه المبدأ يحافظ على الوسطيّة، ويرفض

[52] الإمام الشافعي، ديوان الشّافعي، دار الهدى للطباعة والنشر، الجزائر، د ط، د ت، ص 22 .
[53] الحاج علي حرازم، جواهر المعاني، ج 1، ص 300، 301 .
[54] المرجع نفسه، ص 307 .
[55] معتوق جمال، أوسرير محمد، الصحة الإيمانية، ص 139 .
[56] أحمد سكيرج، الإفادة على الإفادة، الزاوية التجانية، المغرب، د ط، د ت، ص 04 .

كل قول أو فعل وسم به الشيخ ينافي الشّرع سواء أكان زيادة أم نقصانا .

ب-3- المبدأ الثالث: يقول الشيخ أحمد التجاني : "بسير زمانك سر"[57] وهذا يعني أنّ منهجه الصّوفي الذي ينتهجه يتوافق مع روح الشّرع ومتطلّبات الرّاهن الاجتماعي في الوقت نفسه، لأنّ الزّمن يتغيّر ودوام الحال من المحال، ومواكبة العصر بكل تحوّلاته وتغيّراته واجب على المريد الصّوفي . وهذا ما يجعله فعّالا إيجابيّا في مجتمعه، يشارك في إيجاد حلول للمشاكل والتحولات التي يشهدها واقعه وفق رؤيته الوسطيّة، لا يركن إلى اعتزال هموم الناس بحجّة الاشتغال بالعبادة فحسب، وإنما يندمج في محيطه الاجتماعي ويسهم في حل قضاياه، وتوجيه مسار الحياة الإنسانيّة وجهة سليمة .

هذه هي الوسطيّة عند الشيخ أحمد التجّاني التي ربّى عليها أبناءه وأصحابه وأتباعه ومريديه، "مقام الإحسان الذي يشمل كل معاني الخيرية والعدالة والشهادة، واختيار الأجود والأكمل في الأخلاق والقيم والمعاملات لأنّ تغيير العالم والتأثير في المحيط لا يقدِر عليه إلا من انتصر على نفسه وغيَّر ذاته قبل غيره، فبدَّل الصّفات وحسَّن الأخلاق وصفَّى النّيات"[58]، ذلك أنّ "الكمال والصّلاح لا ينالهما إلا من كان وسطا بين طبيعة يابسة قاسية ولينة منقادة سلسة القياد لكنها غير ثابتة على ذلك بل سريعة الانتقال عنه، كثيرة التقلب، فمتى رزق العبد انقيادا للحق وثباتا عليه فليبْشِر، فقد يُسِّر لكل خير"[59] .

ج- آليات المنهج الصّوفي التجاني:

والمقصود بها التّقنّيات المتّبعة لتحقيق الوسطّية كحقيقة معاشة في الدّنيا، أو الوسائل والأدوات الإجرائيّة لهذا المنهج الصّوفي، وقد صنّفناها وفق تعريف الشّيخ أحمد التجاني للتّصوّف إلى :

ج-1- الضّروريات: وهي المطلوبة شرعا سواء أكانت في مقام الإسلام كالعبادات (الصلاة والزكاة والصيام والحج)، والمعاملات (كتحري الحلال في البيع والشراء ...)، والأخلاق (كالصّدق والعفو والإيثار...) . أم في مقام الإيمان (كالإيمان بالغيبيّات والإخلاص في الأعمال ...) .

ج-2- المحظورات: وهي المنهي عنها شرعا في كل شيء وفي كل المقامات (كالسرقة والزنا والقتل وعقوق الوالدين، الكذب والنّميمة والغيبة وشهادة الزور، أكل مال اليتيم وأكل المال الحرام والرّبا، الرّياء والعجب والتّكبر ...)

ج-3- الوقائيات: وهي التي تقي العبد من حبائل الشّيطان وتحميه من مكائده ومن شهوات النّفس وأطماعها وهي فضائل الأعمال الزّائدة عن الضّروريّات من صلوات صدقات وأذكار... وخاصّة هذه الأخيرة التي تعدّ أعظم آليّة يركّز عليها المنهج الصّوفي لما تملكه من قدرة على تغيير الفرد من النّقيض إلى النّقيض .

---

[57] المرجع نفسه، ص 04 .

[58] خالد توزاني، التصوف المغربي، نماذج من التفاعل الإيجابي، مركز الإمام الجنيد للدراسات والبحوث الصوفية المتخصصة، المملكة المغربية، ص 08 . www.aljounaid.ma

[59] ابن القيم الجوزية، طريق الهجرتين وباب السعادتين، تحقيق: محمد أجمل الإصلاحي، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، مكة المكرمة، ط 1، 1429هـ، ص 347.

فالأذكار بما فيها من تلاوة للقرآن وتحميد وتهليل وتكبير وتسبيح وصلاة على الحبيب المصطفى هي خلوة مع الله تعالى، فرصة لمناجاته والاتّصال به والارتباط بدينه والتّشبّث بطريقه المستقيم، مساحة لتفريغ الشّحنات السّلبيّة والتّحرّر من الضّغوطات اليوميّة، زمن للرّاحة القلبيّة والابتعاد عن الضّجيج والتّوتّر، لحظات للغوص في أعماق الباطن وتنشيط معاني الذّوق وسلامة السّلوك . فالذّكر أعظم وسيلة لتنوير القلب ومحاربة الفراغ الرّوحي الذي يجعل المسلم لقمة سائغة للشيطان فيهوي به في مهاوي التّطرّف والتّشدّد، أو التّفريط والانسلاخ .

ج-4- المعينات : وهي التي تعين العبد على الاستقامة وتجسيد الوسطيّة في حياته، ومن ذلك الصّمت، قلّة الطّعام، قلّة النّوم، العزلة، مصاحبة الأخيار ... وغيرها كثير ولكن المجال لا يسمح بذكرها كلها ناهيك عن شرحها وتبيان دورها في تحقيق الوسطيّة .

إنّ الشيخ أحمد التجاني من خلال هذا المنهج الصّوفي – بأُسسه ومبادئه وآلياته- يسعى إلى إنتاج أمة الوسطيّة التي ترقى بالإنسانيّة عقائديّا وفكريّا واجتماعيّا وسلوكيّا، وتخلّصها من قيود الجاهليّة وسلوكاتها المنحرفة والإجراميّة.

فالتّصوّف أو مقام الإحسان يمثل قوّة روحيّة تقود الإنسان إلى حيث يحقّق اختياره بين التّقوى والفجور فيحقّق بإلهام النّفس النّجاح أو الخيبة، ويحقق السّلوك الوسطي السّوي أو المتطرف الانحرافي، وبهذا المعنى يصبح الإحسان "ترجمة حقيقيّة للنّفس الإنسانيّة في شكل تفاعلات اجتماعيّة ؛ إذ لا معنى للوسطيّة إذا لم تتحوّل إلى سلوك تفاعلي يومي يبرز مميّزاته وقوّته في التّعامل مع النّاس، وتأثير إيجابي في الوسط الاجتماعي الذي يوجد فيه .

ثالثا : أثر الوسطيّة عند الشيخ أحمد التجاني في نشر الإسلام في إفريقيا

1- أثر وسطيّة الشيخ أحمد التجاني في تلاميذه :

إنّ الطّريقة التجانية التي أسّسها الشيخ أحمد التجاني تمثل مدرسة دينية تربويّة تعليميّة ؛ تعلم وتربي، تؤدب وتفقه، مدرسة جامعة تجمع بين تنوير العقل، وتدريب الجسم، وسمو الرّوح من خلال تطبيق منهجها العرفاني العملي في الحياة اليومية الذي يرتكز على أسس ثلاثة ؛ العلم والعمل والعبادة . فهي تسعى إلى سمو أفرادها فكريّا بالعلم لتحقيق التّقدّم، وتفعيلهم اجتماعيّا بالعمل لتحقيق الازدهار والرقي، وارتقائهم بالعبادة إلى مصاف الصالحين لتحقيق العدل والإحسان في كل مكان، وذلك كله لهدف أسمى هو مواصلة رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ألا وهي نشر الإسلام في كل ربوع العالم لأنّه مبعوث للعالمين كافة .

وانطلاقا من الوصف الرباني للأمة الإسلامية في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وسطا لتكونوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾[60]، وانسجاما مع مفهوم الوسطية الذي يعني المركزيّة الإشعاعيّة التي تشع على العالم بنور الإسلام ؛ عدلا وإحسانا، محبّة وسلاما . وتماشيا مع المنهج الصّوفي التجاني

[60] سورة البقرة، الآية 143 .

الذي ينشد تحقق الوسطيّة الإسلاميّة في الممارسات الاجتماعيّة والسّلوك اليومي للأفراد، فإن رجال الطّريقة التجانيّة الذين تخرّجوا من مدرسة الشّيخ أحمد التجاني أخذوا عنه هذه الوسطيّة التي تجلت واضحة في سلوكهم وأعمالهم ؛ إذ حملوا على عاتقهم لواء الدّين ؛ نشرا وتبليغا، هداية وإرشادا، نصحا وتوجيها، إصلاحا وتعليما .

ومن هؤلاء التّلاميذ الذين تشرّبوا بقيم الوسطيّة التي كرّسها الشّيخ أحمد التجاني حقيقة في حياته نجد الشيخ عمر الفوتي[61] مؤسس الدّولة الإسلاميّة في غرب إفريقيا ؛ وهي المنطقة "الممتدّة من المحيط الأطلسي في الغرب وحتى السّودان وادي النّيل في الشّرق، الواقعة بين المناطق الصّحراويّة أو شبه الصّحراويّة في الشّمال وبين نطاق الغابات الاستوائيّة في الجنوب، وقد عرفت عند الرّحّالة باسم بلاد السّودان، وهي تضم كل من موريطانيا والسّنغال ومالي وغينيا وساحل العاج وبوركينافاسو والنّيجر ونيجيريا وتوغو وغانا وبنين، ثم الشّريط السّوداني الكبير كتشاد والكاميرون والسّودان"[62] .

2- دور الحاج عمر الفوتي في نشر الإسلام في غرب إفريقيا:

بذل الحاج عمر الفوتي جهودا عظيمة في تبليغ دين الله للعالمين وخاصّة في إفريقيا السّمراء، وهداية القبائل الوثنيّة لعبادة الله الواحد الأحد، ونشر الخير والمحبّة والسّلام بينهم، حتى لقّب بسلطان الدّولة الإسلاميّة في إفريقيا، لأنّه أسّس لأوّل مرّة في تاريخ الإسلام دولة إسلاميّة كبرى في غرب إفريقيا بهذا الامتداد الشّاسع الذي هدّد كيان المستعمر وزلزل أركانه وأفسد مخطّطاته التّبشيريّة، وفي ذلك يقول بونو موري في كتابه

---

[61] هو الحاج عمر بن سعيد الفوتي التكروري من الشخصيات المهمة في نشر الإسلام والدّعوة إلى الطّريقة التجانية، ولد الشيخ سنة 1788 في قرية حلوار التي تبعد حوالي أربعين كلم عن بودور على الحدود السنغالية الموريتانية في بيت علم وتقوى، فوالده الشيخ سعيد ينتمي إلى الجماعات الإسلامية في التورودوب وعلى يده تعلم الحاج عمر دروس الفقه وحفظ القرآن الكريم، ودرس صحيح البخاري ومسلم وغيرهما من الصّحاح وهو لم يتجاوز السادسة عشر من عمره . وفي هذه السّن ترك بلدته حلوار واتّجه إلى فوتاتورد وتلقى العلم على يد مشايخ الطريقة التجانية، وبحلول عام 1814 ترك بلدة فوتاتورد واتّجه إلى مدينة ساتينا في فوتاجالون التي تبعد مئات الأميال عن حلوار مسقط رأسه، وفي هذه المدينة اشتغل مدرّسا فعلّم طلابها القرآن الكريم والحديث النذبوي الشّريف . وفي سنة 1826 قام الحاج عمر بزيارة الحجاز لأداء فريضة الحج وهناك التقى بالشيخ النّقيل أحد شيوخ التجانية، وهو من أهل فوتاجالون، فدرس على يديه مبادئ الطّريقة ثم ذهب معه إلى مدينة حمد الله عاصمة دولة ماسينا، وفي هذه المدينة ألقى دروسا في = =الوعظ والإرشاد، ثم انتقل إلى مدينة سوكوتو عاصمة الخلافة ولقي من أميرها الشيخ محمد بلو بن عثمان فودي الحفاوة والتّقدير وصحبه في معاركه، ثم انتقل فزان ومنها إلى السودان . وفي سنة 1828 وصل إلى مكة المكرمة حيث التقي هناك الشيخ محمد الغالي أحد رفاق الشيخ أحمد التجاني وخليفته في الحجاز . ومن الحجاز اتّجه إلى القاهرة ثم إلى برنو ثم استقر في دولة سوكونو، وبدأ عمله في نشر الإسلام بين القبائل الوثنية ومواجهة المخططات الاستعمارية، فواجه رد فعل عنيف من الدول الاستعمارية وخاصة فرنسا التي كانت لها أطماع في المنطقة انتهى باستشهاد الشيخ عمر الفوتي يوم الجمعة 03 رمضان 1280 هـ الموافق لـ 12 فبراير 1864 م . ينظر : العيد جلولي، دور الطريقة التجانية في نشر الإسلام والثقافة العربية في غرب إفريقيا، ص 173، 174 .

[62] العيد جلولي، دور الطريقة التجانية في نشر الإسلام والثقافة العربية في غرب إفريقيا، الملتقى الدولي الثاني للطريقة التجانية (الخطاب الصوفي التجاني زمن العولمة)، مطبعة الوليد، الوادي، الجزائر، 04 و05 و06 نوفمبر 2008 ، ص 172 .

(الإسلام والنّصرانيّة): "فصار وجود هذه السّلطنة التجّانية في وسط السّودان خطرا عظيما على سيادتنا، وكان تحرير الخلاف هو هذا : هل يتم تمدين السّودان الغربي على يد فرنسا وضبّاطها المسيحيّين أم على يد التّجّانيّة رسل الإسلام ؟ "[63].

كما أثبت الحاج عمر الفوتي بنشره للإسلام بين الوثنيّين في إفريقيا وجهاده ضد المستعمر وضد الوثنيّة المحليّة التي تحالفت معه، أنّ دعوة الإسلام لا تزال مستمرّة استمراريّة رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم الخالدة إلى يوم القيامة، وأنّ الإسلام لا يزال قويّا بقوّة أبنائه المتمسّكين به، الملتزمين بحقوقه، السّالكين طريق الحق ؛ الطّريق المستقيم الذي رسمه تعالى لعباده في كتابه العزيز. وقد شهد بذلك أعداء الإسلام لما رأوه من حقيقة في أرض الواقع إذ يقول موري: "والحق يقال إنّ الإسلام في هذه الصّفحة الأخيرة من تاريخه قد دلّ على أنّه يملك حيويّة عظيمة وقابليّة شديدة للانتشار، فليتذكّر النّاس حركات أمّة البلد ونشاط المريدين أتباع الطّرق وتكاثر الزّوايا وثورة الحاج عمر الفوتي وخلفائه "[64].

فالإسلام يملك قوّته في ذاته، ويمنح مفاتيح قوّته كلَّ من سار على طريقه المستقيم دون اعوجاج، وهذا ما حقّقه الحاج عمر الفوتي الذي تعلّم السّير على هذا الطّريق المستقيم الواضح في المدرسة التّجّانيّة، الذي يتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم في كل شيء ويقترب منه بغية الوصول إلى الوسطيّة المركزيّة التي ينتشر إشعاعها أكثر وأكثر حتى يعم الجميع . وهو ما عبّر عنه أندري راسين في كتابه (غينيا الفرنسية) بالنّمو ؛ إذ يقول: "هذا النّمو الإسلامي كان سببه أمّة فولة والحاج عمر ... لأنّ الطّرق الصّوفيّة هي من أحسن الأجهزة للنّضال . وأحدثها عهدا وأشدّها عزما السّنوسيّة والتّجّانيّة، وهذه الثانية هي في السودان الغربي والسّواحل أعظم انتشارا"[65].

كان الحاج عمر الفوتي ملتزما بمنهجه الصوفي التجاني فلم "يتهاون في أمر من أمور الدّين، ولم يساوم على شيء يخص العقيدة مهما كلفه ذلك "[66]، وعلى ذلك علّم تلاميذه ودرّبهم لأنّ نشر الإسلام يتطلّب التزام العبد به أوّلا، ففاقد الشيء لا يعطيه، ومن لم يحافظ على دينه فكيف يوصله للآخر ؟ ومن لم يجسّد قيم الوسطيّة في الواقع فكيف سيعلّمها للآخر، فالإسلام والوسطيّة سلوك وعمل وحراك دائم لا يتوقّف .

وهذا ما أثبتته المدرسة التجانية فبوفاة الحاج عمر الفوتي لم تتوقّف حركيّة الإسلام بل استمرّت بفعل مريديه، وهذا هو الهدف الاستمراريّة في نشر الإسلام، حتى لا يفنى ولا يندثر بفناء الرّجال. وما يؤكد ذلك قول أندري راسين؛ إذ يقول: "والإسلام ممتدّ أيضا في الجهات الجنوبيّة الغربيّة من غينيا، والسّبب في امتداده إلى

---

[63] شكيب أرسلان، حاضر العالم الإسلامي، ج 2، ص 396 . نقلا عن : محمد الحافظ المصري، الحاج عمر الفوتي سلطان الدولة التجانية بغرب إفريقيا، شيء من جهاده وتاريخ حياته، الزاوية التجانية، مصر، د ط، 1383 هـ، ص 05 .

[64] المرجع نفسه، ص 05 .

[65] شكيب أرسلان، حاضر العالم الإسلامي، ج 3، ص 45 . نقلا عن: محمد الحافظ المصري، الحاج عمر الفوتي، ص 06 .

[66] حندوقة إبراهيم فرج، الإسلام في بلاد التوكولور في غرب إفريقيا في القرن 19 م . على الرابط التالي: http:// www.mubarak-inst.org/all-res.php

هناك فتوحات القبائل الشّماليّة مثل السّونينكا والتورودو والديولا والدياكانكه، ومن هذه الأقوام جنّد الحاج عمر أحسن عساكره، وقد خلّف مريدين قاوموا الفرنسيّين أشدّ المقاومة مثل المرابط محمد ولامينا درامي"[67].

إضافة إلى ذلك عمل الحاج عمر الفوتي على إرساء قواعد السلم والأمن بين المسلمين من خلال إصلاح ذات بينهم، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر لقوله تعالى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾[68]. حيث قام "بوساطة سلميّة بين السلطان محمد بيللو (ت 1837) والشيخ محمد الكانمي نجحت في إخماد حرب طاحنة بين الزّعيمين المسلمين، وقد ترك الشيخ – بهذا الصّدد- مذكّرة خالدة في أدبيّات السّلام سمّاها (تذكرة الغافلين عن قبح اختلاف المؤمنين) وهي منظومة شعريّة وجّهها إلى الزّعيمين، وتظهر أهمّيّتها في كونها تتجدّد مع الزّمن ؛ إذ يشهد المجتمع المسلم – مع الأسف – خلافات ونزاعات داخليّة كثيرة دون أن تكون هناك بوادر ونوايا حسنة لحل تلك النّزاعات"[69].

ولم يتوقف الحاج عمر الفوتي عند هذا الحد، بل عمل على تشييد وبناء الزّوايا التي تسهر على نشر الدّين والعلم والأخلاق، بل قيم الوسطيّة بصفة عامّة، وفي ذلك يقول راسين: "وقد أسّس مشايخ الطريقة التجّانيّة مدارس في كنكان ومكاتب ونشأ مرابطون كثيرون كانت لهم اليد الطولى في نشر الإسلام في إفريقيا الغربيّة والجنوبيّة "[70]. واستمر عطاء هذه المدارس التجانية التي تتبنى المنهج الصوفي طريقا عمليّا يحقق الوسطيّة في الحياة اليوميّة إلى وقتنا الحاضر، وذلك بتشجيع حفظ القرآن الكريم والعناية بتعليم الأيتام والمحرومين، ومساعدة الفقراء والمحتاجين، وإصلاح ذات البين ونصح وتوجيه السّالكين، إلى غير ذلك من الجهود التي تعود بالنفع العام على النّاس كافّة دون تمييز.

والحاج عمر الفوتي يمثل نموذجا حيّا حقّق الوسطيّة عملا وسلوكا وبلغ بها أقصى الغايات وهو نشر الإسلام في إفريقيا بأكملها، وتبليغ دين الله تعالى لقبائل لم تسمع به من قبل . وما هو إلا عيّنة واحدة من تلاميذ هذه المدرسة التجانية الوسطية التي تخرّج منها الكثير الذين ساهموا في نشر الإسلام في إفريقيا كالشيخ محمد الحفيظ بن مختار بن الحبيب الملقب ببادي، والشيخ محمد المختار بن أحمد بيللي سال وغيرهم كثير لكن المجال لا يتّسع لذكرهم كلّهم .

وهي إلى اليوم تعمل وفق نفس المنهج الصوفي الوسطي الذي حدّده الشيخ أحمد التجاني، لم تبدّل ولم تغيّر رغم التّغيّرات الزّمانيّة والمكانيّة المختلفة، ولا يزال هذا ديدنها ؛ تخريج تلاميذ يجسّدون الوسطيّة حقيقة فعليّة ملموسة في الواقع مهما كانت صفتهم ؛ علماء، فقهاء، مصلحين، ناشرين للإسلام ... وما يؤكّد ذلك قول الخليفة الحالي للطّريقة التجّانيّة الشيخ الدّكتور محمد العيد التجاني: "إنّنا ننتمي إلى مدرسة عظيمة، تطلب من

---

[67] شكيب أرسلان، حاضر العالم الإسلامي، ج 3، ص 48 . نقلا عن: محمد الحافظ المصري، الحاج عمر الفوتي، ص 06 .

[68] سورة آل عمران، الآية 110 .

[69] آدم بمبا، دور علماء المسلمين في تحقيق السلم وحفظ الهويّة بإفريقيا، مجلة قراءات إفريقية، المنتدى الإسلامي، ع 29، يوليو، سبتمبر 2016، ص 10 .

[70] شكيب أرسلان، حاضر العالم الإسلامي، ج 3، ص 48 . نقلا عن: محمد الحافظ المصري، الحاج عمر الفوتي، ص 06 .

مريديها أن يكونوا في القمّة، ويتطلّعوا إلى العلياء، ولا يكون ذلك إلا بأساس متين قوامه العلم وأصل هذا الأخير ولبّه القرآن الكريم والسنّة النّبويّة المطهرة، أدّبوا النّاشئة وربّوهم على ذلك، فهذه أولى الخطوات في درب النّجاح "[71].

فلا نجاح يحقّق في الواقع الوجودي دون وسطيّة قوامها القرآن الكريم والحديث الشّريف، والنّجاح يشمل كل مناحي الحياة ؛ فنشر الإسلام نجاح، ونشر قيم الوسطيّة بين المجتمع نجاح، والإصلاح في الأرض نجاح، وتخليق الحياة الاجتماعيّة نجاح وهذا ما سعى ويسعى إليه الشيخ أحمد التجاني من خلال مدرسته وخلفائه الذين حملوا على عاتقهم لواء هذا المنهج العرفاني التجاني، وعزموا على مواصلة المسير إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

وفي الأخير يخلص البحث إلى النّتائج التالية :

– الوسطيّة عند الشيخ أحمد التجاني هي في الحقيقة دائرة مركزها رسول الله صلى الله عليه وسلم، لأنّها تجلّت فيه حقيقة ظاهرة في الواقع، ولتجسيدها فعليّا في حياة المسلمين يجب عليهم الاقتراب من الحبيب المصطفى في الأفعال والصّفات والأخلاق والمعاملات، فكلما اقتربوا منه محبّة وطاعة واتّباعا حقّقوا الوسطيّة وتبوّؤوا المركز في دائرة الأمم ؛ وأشعّوا عليهم نورا، عدلا وسلاما، محبة وإحسانا .

– تتجلّى الوسطيّة عند الشيخ أحمد التجاني في الاستقامة على الصّراط المستقيم وفق منهجه الصّوفي الذي يقوم على ثلاث أسس؛ امتثال الأمر واجتناب النّهي في الظاهر والباطن من حيث يرضى لا من حيث ترضى . وحقيقة ذلك امتثال الأوامر المتعلقة بالظّاهر كقواعد الإسلام الخمس وغيرها، والمتعلقة بالباطن كمقامات اليقين المشار إليهما بالقول : ويحفظ المفروض رأس المال والنّفل ربحه به يوال

خوف شكر رجا صبر توبة زهد توكّل رضًى محبّة[72]

واجتناب النّواهي المتعلقة بالظاهر والباطن ؛ المعاصي المتعلّقة بالجوارح، والمعاصي المتعلقة بالقلب، والمشار إليها بالقول: يغضّ عينه عن المحارم يكفّ سمعه عن المآثم

يطهّر القلب من الرّياء وحسد وعجب وكل داء[73]

وهذا ما " يجعل الإنسان يقترب من الكمال المنشود الذي لا يتحقق إلا ببلوغ الكمال في الشريعة "[74]. وبذلك تتحقق الوسطيّة في السّلوك وتظهر في اختيار الأحسن في الأخلاق، والأجود في المعاملات، والأفضل في أنماط العلاقات .

---

[71] محمد العيد التجاني، كلمة توجيهية بمناسبة الزيارة السنوية، تماسين، ورقلة، مارس، أفريل 2015، ص 03 .

[72] أبو بكر زيد الفوتي، مفتاح السعادة الأبدية في مطالب الأحمدية، مراجعة وتقديم : ياسين بن عبيد، المطبوعات الجميلة، الجزائر، ط1، 2012، ص 238 .

[73] المرجع نفسه، ص 238 .

[74] عبد السلام الغرميني، الصوفي والآخر، دراسات نقدية في الفكر الإسلامي المقارن، نشر المدارس، الدار البيضاء، ط1، 2000، ص 25 .

– يظهر أثر الوسطيّة عند الشّيخ أحمد التجاني في بناء الفرد وإعداده وفق المنهج الرّباني المسطّر في القرآن الكريم والمترجم في السنّة النّبويّة، وبرمجته على معايير وضوابط الشّريعة، وذلك حتى يكون أثره إيجابيّا في المجتمع، لأنّ الإشعاع على العالمين بنور الإسلام، لابدّ وأن يسبقه إشعاع داخلي ونور يغمر القلب يحقّق التكامل الوسطي للمريد الصّوفي، ثم يظهر جليّا في السّلوك اليومي .

– تجاوزت المدرسة التجانية التي أسّسها الشّيخ أحمد التجاني وفق منظوره الصّوفي المتوقع منها والمنتظر ؛ ويظهر أثرها جليّا في نشر الإسلام في إفريقيا، وذلك من طرف تلاميذها الذين تشبّعوا بقيم الوسطيّة الإسلاميّة داخليّا فمارسوها خارجيّا حتى عمّ أثرها الجميع، فكانت الدّولة الإسلاميّة الكبرى في إفريقيا، والتي تضم كل من موريطانيا والسّنغال ومالي وغينيا وساحل العاج وبوركينافاسو والنّيجر ونيجيريا وتوغو وغانا وبنين، والتشاد والكاميرون والسّودان، من تأسيس المريد التجاني الحاج عمر الفوتي .

– إنّ سر نجاح المدرسة التجانية في نشر الإسلام في إفريقيا، يرجع إلى قوّة منهجها الصّوفي الوسطي المستمد من قوّة الإسلام والشّريعة المحمّديّة، المحافظ على الحدود والضّوابط الشّرعيّة، وهذا ما يجعلها مشروعا دينيّا وسطيّا مجتمعيا قويّا وطموحا، يفضي إلى إنتاج فرد نموذجي متكامل من حيث الامتثال الشرعي، قابل لضبط السّلوك والممارسات الاجتماعيّة، قادر على تحقيق الأهداف الكبرى من خلال تحقيق الأمن الاجتماعي والوطني والإسلامي والإنساني .

– إن للمدرسة التجانيّة إسهامات كبيرة في نشر الإسلام وقيم الوسطيّة في المجتمع، ولها دور ريادي في مجمل التحوّلات الفكريّة والحضاريّة والمجتمعيّة التي عرفها المغرب الإسلامي عبر تاريخه الحافل بالمنجزات، وهذا ما يجعلنا ننظر إلى التّراث الصّوفي عامّة نظرة مغايرة تستثمر كل ما يكتنزه من طاقات أخلاقية وجمالية في مواجهة تحدّيات العصر وزحف التيارات المادية وأزمة الأخلاق في المجتمعات المعاصرة، وخلق جسر تواصل مثمر بين التراث الصوفي المغربي والتحديات الراهنة لاستشراف حلول لواقع معقد ومتشابك.